مكتبتي ٣٦

سارق الأيام

بقلم : منال عزام
رسوم : عبد المرضى عبيد

دار المعارف

تصميم الغلاف: **محمد أبو طالب**

دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة: ج.م.ع.

إعداد الماكيت: أمانى والى

يُحْكَى أنه فِى قديم الزَّمَان، كانَ يُوجدُ ملكٌ ظَالم، وَكَانت لهُ حَاشِيةٌ مِنَ الرجَالِ ينفذُونَ أوامرَه، ولا يعْصُونه خَوْفاً منْ بطْشِه، أمَّا الرعيَّةُ فكَانت تعيشُ فِى ضِيقٍ دَائم، وإذا جَاءَ المسَافرُ منْ بعيدٍ فهُوَ لا يرَى أمَامه سوَى قصرٍ عَالٍ كَبير، وحوْلَه أكواخٌ فقيرةٌ متهَالِكَة. . كان القصْرُ بالطَّبْعِ للملَكِ أمَّا الأكواخُ فللشَّعْب. وكَانَ الملكُ لا يهتمُّ بمَا وصلَ إليه شعبهُ مِنْ فقرٍ وشقَاءٍ بينمَا يخُصُّ نفسَهُ بكلِّ شىءٍ حَتَّى الأرضَ والبيوتَ والماشية. . كلُّ شىءٍ للملَكِ ولا شىءَ أبدًا للشعْبِ. . وتدهْورت الأحوَالُ مِنْ سيىء إلى أسْوَأ. وذاتَ ليلةٍ نامَ الملكُ فرَأى فى المنامِ أنهُ يموتُ، فنهضَ مفزُوعًا وأخذَ يفكرُ فِى حَاله، هَلْ سيمُوتُ ويتركُ كلَّ هذَا الثَّراء للرَّعيَّة؟! لا شَكَّ أنهمْ سيفْرحُون بموْته. وأسرعَ ينادِى وَزِيرَه الذِى جَاءَ مُهَرْوِلاً خَائِفا، وأخذَ الملكُ يحدّثُه عمَّا رآهُ فِى مَنامِه، فحَاول الوزيرُ تهْدئَته. ولكنَّ الملكَ صَاحَ «لنْ أمُوتَ، ولنْ أدعَ هذَا الشعْبَ البائسَ يفرحُ بموْتى. . سأعيشُ رغمَ أنْفِه. وخطرَت لهُ فكرَةٌ جعلَتْه يقفزُ ويصيح، نعمْ يجبُ أنْ

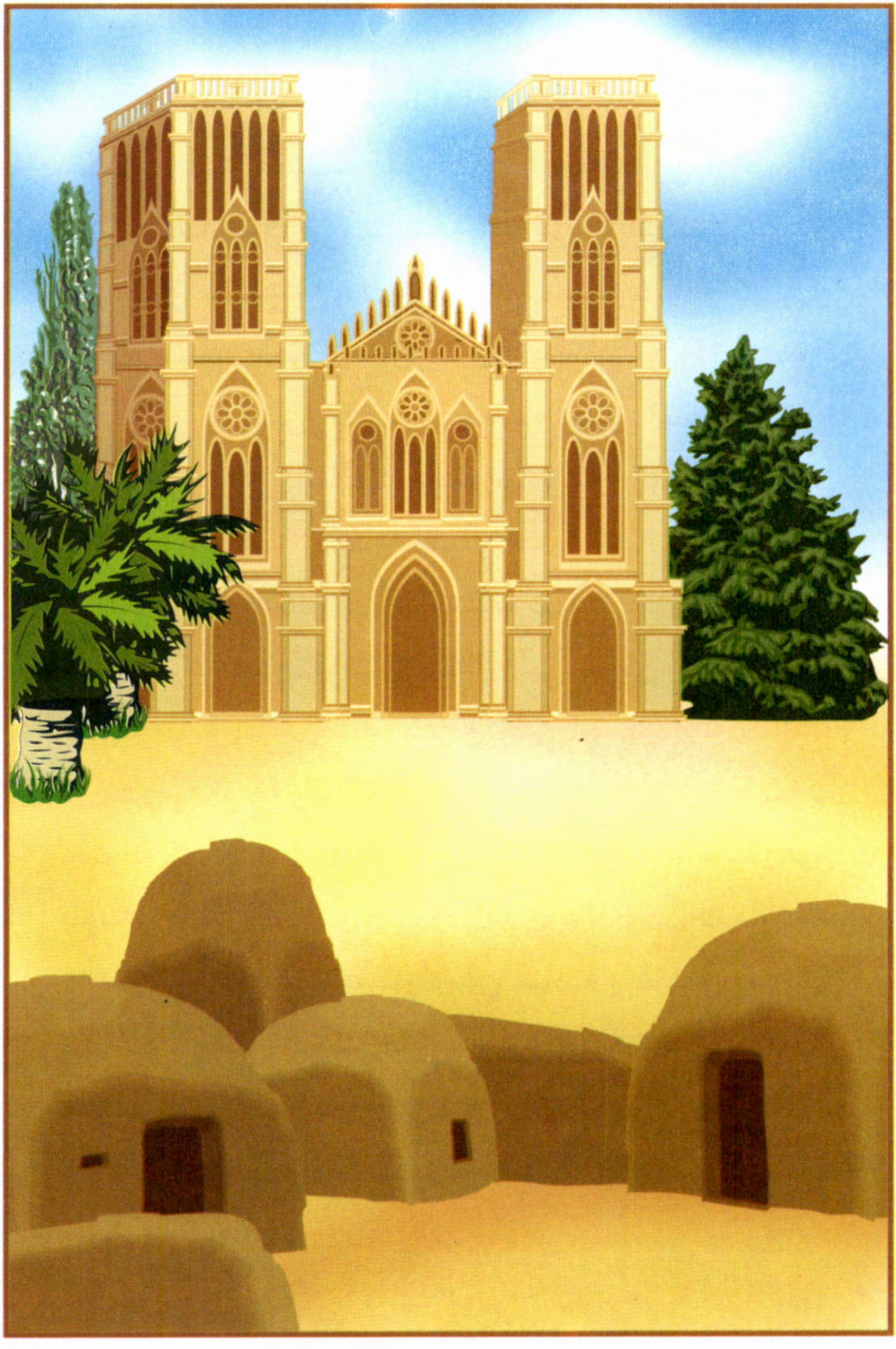

أعيشَ وأعِيش. . ولوْ أنَّ كلَّ فردٍ منَ الرعيَّةِ أعْطَانى يوماً منْ عُمره، لعشْتُ وملأْتُ الدُّنيا بصوْتى. فابتسَمَ الوزيرُ وظنَّ أنَّ هذِه نكْتَة. . ولكنَّ الملكَ صاحَ بِه: هيَّا اذهَبْ للمنَادِى وأمره أنْ ينَادِىَ فى النَّاسِ فى كُلِّ الأسوَاق والأزقَّة والشوَارِع. . وَيَقول: إنَّ الملك لا يريدُ اليومَ شاةً أوْ بقَرةً، ولكنَّهُ يُريدُ يومًا منْ عُمرِ الكَبيرِ والصَّغِير.

أصَابت الدهشةُ وَزيرَه، ولكنَّ الملِكَ أمرَه بسُرعَةِ التنْفِيذ، فخَرجَ الوزيرُ يضرِبُ كفا بكَف، وأمرَ المنادى أنْ ينَادىَ فى الناسِ بما أمرَ الملك، خافَ المنادى أنْ يضربَه الناسُ وعرفَ أنهُ مقْتُول مقْتُول، ولكنه خرجَ ينادِى فيهم استجابةً لأوامرِ الملك، وتجمْهرَ الناسُ وسمعُوا الأوامرَ فوقفُوا يتحدَّثُونَ فى هذَا الأمرِ العَجِيب، ووقَفَ الشحَّاذُ يضحَك قائلا : فليأخذْ عُمْرى كلَّه فسيعرفُ معْنى البؤْس، وقال التاجرُ وأنا يوم منْ عُمرى سيعْرَفه معْنى الإفلاس وقالت السيدةُ العجوزُ: وأنا يوم منْ عُمرى سيشْقِيه بقيَّةَ عُمره. وكمَا هِىَ العادةُ فقدْ خضعَ الناسُ للأمْرِ، فكيْفَ يرفضُون وهُم لا يملكُونَ حقَّ الرفْض.

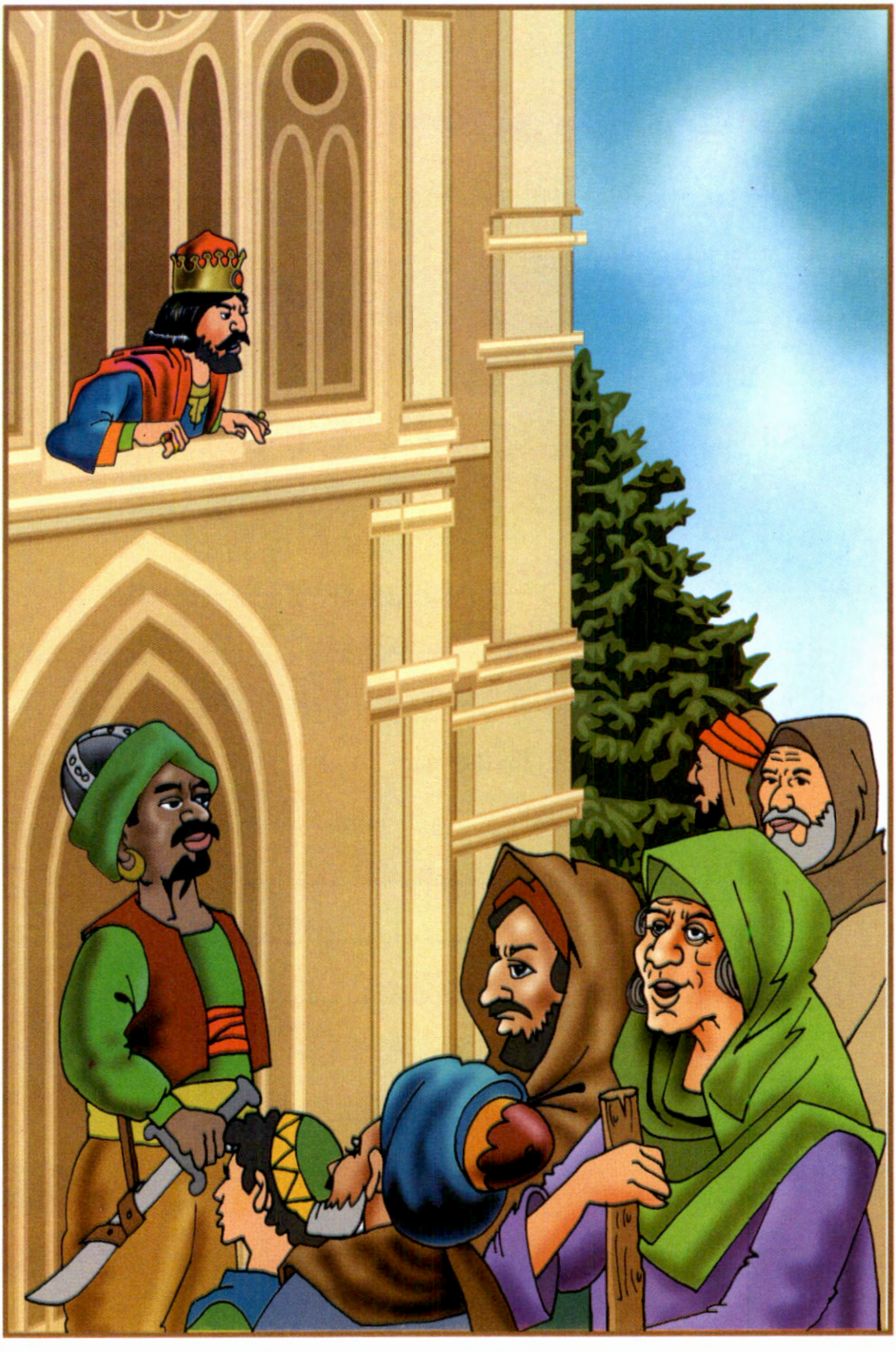

ووقفَ الملكُ فوقَ قصْرِهِ العَالِى، وهو يراقبُ الناسَ تتوافدُ على قصرِه، وكل واحدٍ يتنازل عنْ يومٍ منْ عُمْره، وشَعرَ الملكُ بالفرْحَة.. فهوَ لا يسْتطيعُ إحْصَاءَ عددِ الناسِ، وهذَا يؤكّدُ أنهُ سيعيشُ آلافَ السِّنين. وانْصَرَفَ الناسُ وأصبحَ لدَى الوَزِيرِ قائمَةٌ لا تنتَهِى منَ الأيامِ التِى تنازل عنهَا أصحَابُهَا، أمَّا الملكُ فباتَ مرتاحَ الفؤَاد. ومرّت الأيامُ وهُوَ على ظُلْمِه حتى أصابَه مرضٌ شديدٌ أرْقدَهُ فِى الفِرَاش، وجعلَه لا يتحرَّك، فجَاءهُ الطبيبُ وخرجَ منْ عنْده يهتفُ للوَزيرِ ويقولُ: إنَّ الملكَ يحتَضِر، إنها لحظةُ الموتِ المكتُوب والتِى لا يهرَب أحدٌ منها، فسمعَهُ الملكُ وأسرعَ ينادِى الوزيرَ ويَصِيح: أنَا لنْ أمُوت. . لنْ أمُوت وتركه الوزيرُ لينامَ ونامَ الملكُ مُبْتَئِسًا، حتى طلعَ عليْهِ النهارُ فلمْ يصدّق أنهُ عادَ للحَيَاة، عندهَا تذكرِ الأيامَ التى أخذهَا منَ الشَّعب.. وهَا هُوَ بدأ يستمدُّ حياتَه منْ حيَاةِ رَعِيتِه.. ولكنّه شعرَ بهمٍ ثقيلٍ يجتَاحه، فحاول أنْ يتخلصَ منْهُ دونَ فائدَة. فنَادَى وزيرَه وحكى لهُ عَنْ ذلكَ الشعُور، فأسرعَ الوزيرُ يحضرُ القائمة ويهْتِف نعمْ إنه اليَوْمُ الأول والذِى يخصُّ فلاحًا فقيرًا أخذْنَا أرضَه غصبا ، وهوَ منْ وقتِهَا حزينٌ مهْمُوم ، ولم يكن الملكُ ليتحمَّل الحزنَ فأسرعَ يهتفُ رُدَّ عليْه أرْضَه..ردهَا اليومَ

قبلَ الغد. . ردهَا حتىً أستطيعَ التنفّسَ فأنَا أكادُ أمُوتُ منَ الهم. فخرجَ الوزيرُ ومرّ يوم الملك الأوَّل. منْ أيام الشعْب. وجاءَ اليومَ الثانى فاستيقظ وقبل أنْ ينهضَ منَ الفِرَاشِ أحسَّ بآلامٍ شَديدةٍ فى ظهْره، فنادَى وَزِيرَه فقال الوزِير: لا تقلقْ يا مولاىَ فهذَا اليوم لرجُلٍ مسْكينٍ جلدنَاهُ ظلمًا بالسيَاط وهو منْ يومهَا عليل مكسُور الظهْر فصاحَ الملك أحضرُوا لهُ الطبيبَ الآن حتى أستطيعَ النهُوضَ منْ فِرَاشى ومرّ اليومُ ثقيلاً علَى الملِكِ حتىً أنه كانَ يتمَنى أنْ تشرقَ الشمسُ بأيَّة وسيلة.

وجَاءَ اليومُ الثَّالثُ فاستيقظَ الملِكُ باكيًا بدون سبب ولم يستطعْ التوقفَ عَنِ البكاء، فجَاءهُ الوزيرُ ومعَهُ القائمَةُ فقال له: إنَّ هذَا اليومَ لسيدَةٍ عَجُوز، وابنها الوحيد محجُوزٌ لدينَا فى السجْنِ بلا ذنْبٍ وَهِىَ منْ يومهَا تبْكى ولا تكفَّ عَنِ النَّحيب، فأمرَهُ الملك بإطلاقِ سراحِ هذَا الرجُل.. وهكذا توَالت الأيامُ فلمْ يَرَ الملكُ نَعيمًا أو رَاحةً ولمْ يَعُدْ يتفرّغُ إلا لأحزَانه فصحَا من غفوتِه وأدرك أنَّ حيَاةَ شعْبِه بائسَة وأيامهم لا تَسُر، فلمْ يستطعْ أنْ يتحمَّل وخَاصَّة حينمَا أدرك أنَّ القائمة لنْ تنتَهى أبَدًا. فاستدْعَى وزيرَه وصَاحَ به: لا أريدُ المزِيد. . مزِّقْ هَذِه القائمَة، حيَاتى أصبحَتْ لا تُطاق

فقَالَ الوَزِير الحلُّ بيدِكَ يا مَوْلاَىَ .. فلَوْ أنكَ رددتَ المظَالم وأعدتَ للنَاسِ حقوقهَا لطَابَت أيَامُك كلهَا . أيْقَنَ الملكُ أنَّ هَذَا حقا هُوَ الحلُّ الوحِيد، فوافقه عَنْ طيبِ خَاطِر، وبدَأت حياةُ النَاسِ تتغيّر، هذَا استردَّ أرْضَه، وذاك خرجَ منْ سجْنِه وتلك اسْتردَّتْ مَاشيَتَهَا وأغنامَهَا، وبدأ الناسُ يتنفسُون.. كأنَّ المملكةَ لبسَتْ ثيابَ السَّعَادة والنَّعِيم، ولم يعدْ أحدٌ يذكُرُ الملك بسُوء.

دخَل الوزيرُ علَى الملكِ مبتَهِجًا فوجَدَه لازالَ حزِينًا، فسأَلهُ عَنْ سببِ حزْنه فقالَ الملِك لازلتُ أشعرُ بالكآبة، فالظلمُ لَمْ يُرْفَعْ بعْد عَنْ شعْبى. . لا تنْسى أننِى أخذتُ أياماً منْ أعمَارِهم دونَ وجْهِ حَق. . هيَّا يا وَزِيرى اذهَبْ للمنَادِى ودعْهُ يطوفُ بالنَاسِ ويبلّغُهُم أننى لا أرِيدُ أيامهُم ولِيبَارِك الله لهُم فِيهَا شعَرَ الوزيرُ بالسَّعَادة. وأسرعَ يعدُو ليبلغَ الناسَ بينمَا ابتسمَ الملكُ لأولِ مرّةٍ منذُ شُهُورٍ طوِيلة واسْتَرَاح ، وأخذَ المنَادِى ينادِى بأَنَّه منَ اليومِ لا أحزَانَ ولا عمْر يؤخَذُ إلا بسلْطانِ الحقِّ الذِى لا يفوقُه سلْطَان.

الفتى السعيد

كان يعيشُ فى قريةٍ نائيةٍ رجلٌ لهُ ولدَان، وكانَ الرجل مَعْروفا بقوَّته وغلظته وبأْسه الشَّديد، وقدْ وَرِثَ ابنُه الكبيرُ طباعَه فسمَّاه «شديدًا» ، أما ابنُه الآخرُ فكانَ علَى النَّقيضِ التَّام ضاحكا مُسْتَبْشرًا كثيرَ الدُّعَابَات. . حلْوَ القسَمَات ولديْه ابتسَامة عَرِيضَة تلفتُ الأنظار، فسمَّاه والدُه «سعيدًا».

أمَّا «شَديدٌ» فكانَ يزرَعُ الأرضَ، وَيَفْلَحُ طوَالَ النهَار بلا تَعَب أو ملَل. فأخَذَ منَ الشمسِ قسْوَتها، ومنَ الأرضِ سُمرَتَهَا وشدَّتَهَا، أمَّا «سعيد» فقدْ كانَ مشْغُولا بالأعمَالِ اليدَويَّة يصنعُ السِّلال منَ الخُوصِ والنَّخيلِ فتخْرجُ منْ تحتِ يديْه أشكالا جَميلةً متينَة الصُّنْع، وهوَ يتغَنَّى ببعْضِ الأناشيدِ الجميلةِ وعلَى وجْهه تلك الابتسَامة السَّاحرَة، ولمْ يكُن يفارقه سنْجَابه الصَّغير الذى كانَ لهُ أوْفى صَديقٍ.

وعلى الرغم من حُبِّ الناس لسعيد إلاَّ أنَّ والده كان ينهره دائماً، فإذا رآه يضحكُ وبَّخَهُ قائلا: ألا ترى أخاك «شديداً» ذلك الفتى الرَّشيد، لوْ أنك ترسَّمتَ خُطاه. . لكبر مقامُك عندي فأنتَ الآنَ في نظري لستَ سوى مُهرّج صغيرٍ ولا غير .

وكان هذا التَّوْبيخ يحزُنُ «سعيداً»، ولكنَّهُ ما أنْ يعودَ لصناعة السلال بصحبة سنْجابه، ويرى الناسَ فيضحك لهُمْ ويضحكونَ له، حتىَّ ينسى همومَه وأحزانَه.

وذاتَ يوْمٍ أقامَ والدُ «سعيد» و«شديد» مأْدبةً حضرها كبارُ رجال القرْية، وجلسَ الأبُ متباهياً بسعة أرْضه وفتوَّة أبنائه، فأخذَ الرجال يتحدَّثونَ و«شديد» و«سعيد» بجلسانِ معَهُم فاندمجَ «شديدٌ» في الحديث عن الزراعة والأرْض، أمَّا «سعيد» فجلسَ شارداً وفي ذهْنه أفكارٌ كثيرة، وحينما لاحظه أحدُ الجالسينَ سأله قائلا: فيمَا كانَ شرُودُك عنَّا وغيابُ ذهْنك عنْ مجلسنا؟! فابتسمَ «سعيد» وقال: كنتُ أفكرُ في نادرةٍ منْ نوادرِ «جُحا»، ثم بدأَ يروى النادرةَ التي عرفها عنْ «جُحا»، فهلل الرجال لحديث «سعيد» ، واختلطت أصواتُهُم يطلبُونَ منْه المزيد، و«شديد» يسترسل ويضيف ويزبدُ ، والرجال يضحكون أمَّا الأبُ فأحسَّ أنَّ ابنه خيَّبَ آماله وشذَّ عنْ أحْلامه، ولما استمرَّ الفتَى في دُعابَاته وضحكاته نهضَ الأبُ غاضباً وصاحَ بابنهِ : كفَّ عنْ هذه

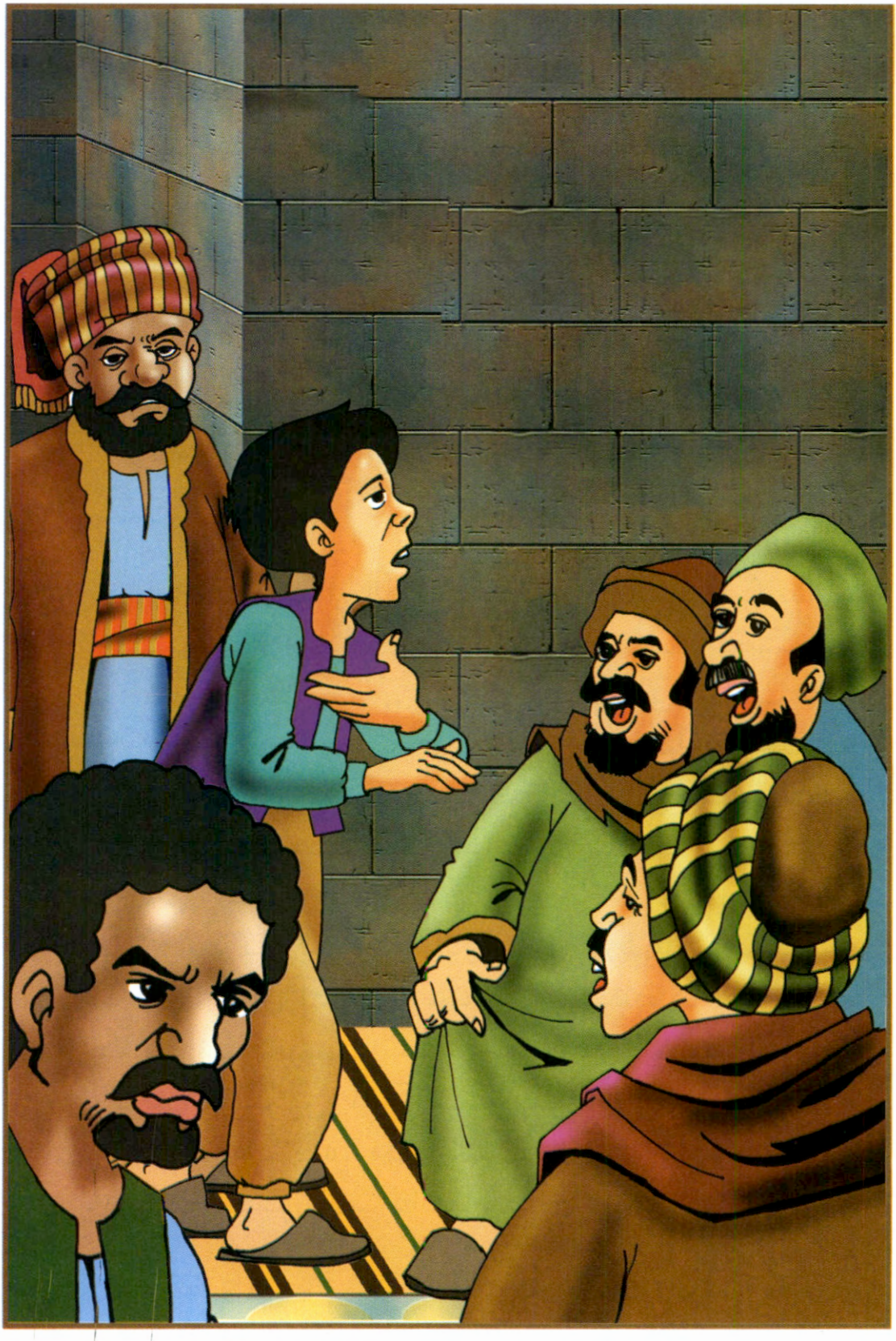

السخَافَاتِ واعلَمْ أنَّ عقابكَ عنْدِى سيكُونُ أعظمَ منْ كُلِّ التخيُّلات.

فتهامسَ الرجالُ بدهشَةٍ وبُهتَ الفتَى، فهُوَ لمْ يخرُجْ عنْ حدُودِ الأدبِ ولم يقل ما يستوْجِبُ الغضَب. وظهرَ السخْط علَى وجْه الأبِ وهُوَ يَصِيح: ستعرِفُ منَ الآنَ معْنَى الالتزَام، وستدْرِك كيفَ تكونُ الرجُل الهمَام؟!

همهم الرجَالُ وانعقدَ لسانُ «سَعيد»، وظهرَ الحزمُ علَى وجْهِ شديد، وعَادَ الأَب يقُول بقوَّة: سأَحْبِسُك فى الدارِ ولنْ تغادرَهَا حتى تدرِك معْنَى الرجُولة، وتعرِفَ أنَّ الضحِك سفهٌ وليْسَ بُطولة.

خرجَ الناسُ منَ الدارِ وهُم يضرِبُونَ كفًّا بكَف. وباتَ الفتَى فى السجْنِ الذى اختَارَه لهُ أبُوه، وقدْ أضنَاه الحزنُ وَفتَّتَ قلبَه اليأْسُ، ولم يكُن يؤنسُ وحْدَته سوَى سنجَابِه الذى ظلَّ يحومُ حَوْله وفِى عينَيْه دمُوعُ حُزْنٍ غزِيرَة. . فأخذَ سعِيد يحدِّثُه ويبثُّ حزْنَه وَهمّه إليْه ليشعر بأنَّهُ ليْسَ وَحِيدا. فانطلقَ بصوْتِه الحزِينِ يقول: أرأيْتَ يا صَاحبى. . لقدْ أهْمَلنِى وَالدِى أمامَ النَّاسِ وحكمَ علىّ بالسِّجْن دُونَ أنْ أقترِفَ ذنْبا. . فكل ذنْبِى أنَّ فمِى لا يعرفُ إلا البسمَات ولسَانى لا ينطِقُ إلا بأطرَفِ الكلمَات.

فبدأ الأسى على وجه السنجاب لأنه يفهم صاحبه تمام الفهم، وعاد الفتى يقول: لم يعد لى عيش هنا فلا أبى يفهمنى ولا أخى يذود عنى، ولكن كيف سأخرج من هذا السجن وأبى يوصد الباب بالمفتاح، والمفتاح فى جيبه، وجيبه هو الحصن الحصين.

خطرت فكرة عظيمة لصديقه السنجاب، جعلته يسرع الخطى لتنفيذها.

فتسلل إلى حجرة الأب وقرر أن يحصل على المفتاح ليحرر صاحبه «سعيد» ، وبخفته المعهودة استطاع أن يقفز إلى جوار الأب فى فراشه ويخرج المفتاح من جيبه، والأب نائم لا يشعر بشىء مما يجرى حوله. وعاد السنجاب إلى «سعيد» وسلمه المفتاح، ولم يصدق الفتى نفسه فأسرع يفتح الباب ويتسلل إلى الخارج، ورغم كل شىء كانت دموع الحزن تملأ عينيه.

سار الشاب وحده ليلا، ولم يأخذ معه شيئا يتزود به وكله أمل أن يلقى خارج قريته محبة ووفاء وأهلا يحبون وجهه المستبشر السعيد، حتى وصل إلى مشارف قرية جميلة كان يسمع عنها وعن سماحة أهلها، وكان كلما سار داخل القرية يلقى السلام على من يراه، فيلاقى مثله ويزيد، فأحس بالألفة تملأ قلبه، وأحس بالناس تستجيب لابتساماته الجميلة. . وظل هكذا حتى

وصلَ لدكَّانِ رجُلٍ تَبْدُو عليْهِ الطيبَةُ والاطمئنَان وطلَبَ منْه شربَةَ مَاء فأعْطاه، ووقفَ «سَعِيدٌ» يسْأَلُه عنْ حالِ القرْيةِ وعنْ إمكانيةِ العملِ بهَا وخَاصَّة فِى صناعَةِ السلال. . فأفادَه الرجُلُ بما أحبَّ ورضِىَ ودَعَاهُ إلى مسْكنِه ليرتَاحَ مِنْ مشقةِ الطريق وينفضَ عنْه مَا كانَ بِه منْ ضيق، فذهبَ معَه «سعيد»، وهناك تجاذبَ معَه أطرَافَ الحديث. . فقال الرجُل له: عمدَةُ هذِهِ القرْيةِ رَجُلٌ طيبٌ ولكنّه مسْكِين.

تساءَلَ «سَعِيدٌ» فِى دَهْشَة: مِسْكين؟!

فأجَابهُ الرجُلُ قَائِلاً: نعَم فالحزنُ يعتصرُ قلبَه منذُ وفاةِ زوجَتِه، ولم تفلحْ كل الجهُودِ فى إخْرَاجِه منْ حَالتِه.

فتألَّقَتْ عينَا «سَعِيدٌ» بابتسَامةٍ وقَال: لعلَّه يخرُجُ منهَا عمَّا قرِيب.

فأجَابه الرجُلُ قائِلاً بِيأْسٍ يَالَيْتَ وَلكنهُ أمَل بعِيد.

فشكرَ «سعيدٌ» الرجُل وخرجَ منْ دارِه ومعَه صدِيقه السنجَاب قاصدًا بيتَ العمْدة وهوَ يفكرُ فى إنقاذ العُمْدَةِ منَ الحزنِ الذى يفترسُه حتى يعِيشَ «سَعِيدًا» فى هَذِه القرْيَة وأَبلغَ الحارِسُ عمْدةَ القرْيةِ أنَّ شَاباً يُدْعَى «سَعِيدٌ» يرِيدُ مقابلتَه فقال

العمدةُ بأسَى: وهَلْ هناكَ «سَعِيدٌ» فِى هَذِه الدُّنيا؟! دَعْهُ يدْخُل.

دَخَلَ «سَعِيدٌ» قَائِلاً: أنَا «سَعِيدٌ» : هذَا اسْمِى وهَذِه صنعَتى. . أحبُّ الضحك والابتسَامَ يوْمى عمل ملىءٌ بالأمَل، ومهْنتى صنْع السلال، أغنِّى لهَا أجمل الأناشِيدِ وكل يوْمٍ أرَاهُ عِيدا.

اندهِشَ العمدَةُ وأخذَ ينظرُ إلى الفتَى الباسِم وهُوَ يحدّثُ نفسَه قائلا: عَجِيبٌ أمْرَ هذَا الشَّاب والأعجَبُ ابتسَامته الواسِعَة. . فأنَا لم أر فِى حيَاتِى ابتسَامة مثْلهَا. . ولَم أر عَيْنيْن ضَاحكتيْن كعيْنيْهِ منْ قبْل.

قال العمدةُ له: أتسْتطِيعُ أنْ تجعلَنِى ابتسِم؟!

فأجَابه سَعيد بثقة قائلا: بل أستطِيعُ أنْ أدفعَكَ للضَّحك حتَّى تطلبَ منِّى أنْ أكفَّ وأرحَل.

فتحَمّسَ العمدةُ لكلامِ الشَّاب وجلسَ فى مجْلسِه واستكانَ بينمَا بدأ «سَعِيد» يروِى لهُ كل مَا كانَ مِنْ أخبَارِ الحمْقى والمغفلين وذَوِى النوادِرِ المضْحِكة، ورغمَ أنَّ العمدةَ لم يُحَرّك ساكِناً فِى بَادِئ الأمْر إلا أنَّ أسنَانه بعْدَ لحظات بدأت تظهر، ثُمَّ تطوّرَ الأمرُ فظهرَت كامِلة، ثمَّ انفرجَتَ عَن ابتسَامَة. . ثُمَّ قهْقهَة عَالية سمعَهَا كل مَنْ فِى الدَّار، وأخيرًا تهلل وجْهُ العمْدة فهتفَ بسعيد قائِلا: لنْ تغادِرَ بيتى بعْدَ اليومِ أبَدًا. . فأنَا أرِيدُك أنْ تمكثَ معَى فِى الدَّار.

تردَّدَ «سَعِيدٌ» ثمَّ قَال: دعْنِى يا سيِّدِى اختَارُ لِى بيْتًا، وأعِدُكَ أنْ أكونَ عندَكَ كلمَا أرَدْت رُؤيتِى فأجَابه العمدةُ وقدْ تغيّرتْ نبرتُه إلى التفاؤلِ والأمَل: سأساعِدُك على بناءِ البيتِ ولتبدأ مِنَ الغدِ فى صناعَةِ السلال. وَمِنَ اليومِ غنِّ واضْحَك واملأ الدُّنيا ابتسَامَة، فالابتسَامُ يا بُنَىَّ هُو سِلاحُك القوِىُّ ضِد الأيَّام.

ذَهَبَ «سَعِيدٌ» وَقد ابتسمَت لهُ الدنيَا، كمَا ابتسَمَ لها منْذَ كانَ طفلًا وَليدا، وبدأ فى بناءِ البيْتِ فوقَ جَبَلٍ شَامِخٍ، فكانَ يمكثُ بالقرْبِ منْهُ ليصنَعَ سِلالهُ الجميلة بأشكالٍ بَدِيعَة، وذاعَ صِيتُه فى كُلِ مكان بعْدَ أنْ أعادَ العمدةَ لسَابقِ عهْده واستعَادَ بالابتسامة سالف مجده وبدأ الناسُ يتوافدُونَ على «سَعِيدٍ» ينشدُون عنْده جلاءَ الهمِّ وانْكِسَارِ الأحْزَان. .

وهكذَا عاشَ «سَعِيدٌ» بائعًا للسلَال وراضيًا بمَا آلتْ إليْه الأحوَال، فليسَ هناك أجْمَلَ مِنَ المقامِ الذِى أصبحَ فِيه، وحُبُّ الناسِ وعطفِهِم يكفِيه.

وجَاءَ اليومُ الذِى سمعَ فيه «سَعِيدٌ» صوتَ سنجَابه وهُوَ يحدثُ جَلَبة عَالية ونظرَ إليْه فوجَدَه يدورُ حوْل نفسِه فأدركَ أنَّ هناك أمرٌ جَلل، فقدْ جَاءه السنجاب بخبرٍ منْ أطرَافِ الجبلِ فامْتَلأت نفسُه بالخوفِ وأصَابه الوجَل، ومَا أنْ نظر منْ نافذةِ البيْتِ حتَّى رأى رجُلا صاعِدًا إليْه.. رجُلا مَهِيباً يعرِفُه تمَامَ المعْرِفة .. ولمْ

يكُن الرجلُ سوَى والدِه وجَاءَ مِنَ الجبل قَاصدًا منزِلَه، فعرفَ «سعيدٌ» أنَّ الوالِدَ جَاءَ زائِرًا ككل الزوَّارِ ولعلَّهُ سمِعَ عنْهُ وَعَمَّا يدُورُ حولَه مِنْ أخْبَار.

فأسرعَ «سَعِيدٌ» يرتدِى عمامةً ليخْفِىَ بِهَا وجْهَه وعباءةً لفَّ بِهَا جسَدَه وهمسَ لسنجَابِه قائِلا: اختبئ الآنَ يَا صَاحبى، فهَا هُوَ الوالِدُ قدْ أتَى وأنَا لا أريدُه أنْ يعْرِفنى، أرِيدُ أنْ أتحدّثَ إليْهِ منْ ورَاءِ سَاترٍ فلا يكشفَ أمرك أوْ يكشفنى.

فامتثَلَ الصديقُ للأمْر، وطرقَ الأَب البابَ فخفَقَ قلبُ «سَعِيدٍ» وأذِنَ لهُ بالدُّخُول، دخَلَ الأب وقدْ تغيَّرَت ملامحُهُ وظهرَ عليْهِ تقدُّمُ العمْر. . وبعْدَ أنْ ألْقَى السلام دعَاه «سَعِيدٌ» للجُلُوسِ فجلَسَ وقال وهُوَ يتأملُ ذلك الرجُلَ المتدَثِّرَ بالعبَاءَة: قصدْتُك لأنَّنى فقدتُ أغلَى مَا عنْدى فاستبدَّ بِىَ الحزْن، وأملَى أنْ أجدَ عندك الدواءَ كمَا جئتُك بالدَّاء.

فأحَسَّ «سَعِيدٌ» بالخوْفِ .. فهُو أمامَ والدِه. . ذلك الرجلُ القوِىُّ الغلِيظ، ورغمَ وهَنِه وضعْفِه الآنَ إلاَّ أنَّهُ لا ينْسَى منْه مَا كان ولا ينْسَى يومَ أنْ خرجَ منْ دَارِه فى جوْفِ الليلِ حزِينا فقال محاولا التظاهُرَ بالثباتِ والاطمئْنَان: ومَا الذِى فقدْتُه يا أبى؟

ظهرَ الندمُ على وجْهِ الأب وهُوَ يقول: ولدى. . كانَ فتًى جميلا باسمًا، لهُ وجْهٌ يذكِّرُنى بوجْهِك.. بحثْتُ عنْه طويلا فأعيانى البحثُ حتَّى دلنى الناسُ عليْك وقالوا إنَّ صاحبَ السلّال يملكُ ما يملكه أعظمُ الرجال.

فابتسمَ «سعيد» فهذا حقًا هوَ لقبُه وها هُوَ والده قدْ نسيَ أنَّه أمهرَ صانعى السلّال ولعلّه ينكرُ عليْه هذه الصنْعة أيْضا، ونظر إلى والده فرأى الدمُوعَ تملأُ عينيْه فتعجَّبَ فهذه هى المرَّةُ الأولى التى يرَى فيها دمُوعَ أبيه فتمنَّى لوْ مسحَ هذه الدمُوعَ ولكنَّه تماسكَ وقال بصوْت رزين: وما الذى أفقدَك إيَّاه؟ هل ضلَ الطريق؟ أم ضقتَ أنتَ به واشتدَّ بك الضيق؟

فتعجّبَ الرجلُ وقال بدهْشة: وكيفَ عرفْت؟

فهزَّ «سعيدٌ» أكتافهُ قائلا: ألم يخبروك عنّى وعنْ قدرتى على الشفاء؟ أنا أعرفُ كل شىء عن علة العليل إذا أتانى. . فأنتَ قدْ قسوْتَ على «سعيد» وفرّقْتَ بيْنهُ وبينَ أخيه «شديد» فاشتدَّ العجبُ بالأب وقال بدهْشة: وكيفَ عرفتَ أسماءهُما؟!

فتحرَّكَ الشابُّ أمامَ والده قائلا: لا تنْسَ أننى طبيب. . قدْ لا أستخْدمُ العقاقيرَ ولكنَّنى أستخْدمُ ما هُوَ أشدَّ تأْثيرًا.

فقالَ الأب وقدْ أخذَهُ عجبٌ : أىُّ دواءٍ هذا الذى هُوَ أشبهُ بالسحْر.

فتأَمَّلَهُ «سَعِيدٌ» وقَالَ بأَسَى: الدوَاءُ الذِى حَرّمتَهُ عَلى ابنِك وسجنْتُهُ مِنْ أجْلِه. . الابتسَامَ وطرِيفَ الكلام. . الحبَّ والوُدَّ والأَمَان. . مقابِلة الرجُلِ بوجْهٍ ضَحُوكٍ حتى لوْ كانَ صعْلُوكا وليسَ ملِكا منَ الملوك.

فغضَّ الأب بصرَه بأسَفٍ وقَال: معَك كُلُّ الحَق، فقدْ غابَت شَمْسِى مِنْ بعدِ غيابِه عَنِّى، وهَا أنا أمكُثُ فِى حَيْرَةٍ مِنْ أمْرِى أعَضُّ أصابعَ النَدَم وأتجرَّعُ كئُوسَ الألم.

طربَ قلبُ الشَّابِّ بعدَ مَا سمعَهُ وأحسَّ بالحنينِ لوَالدِه وهُوَ يشُدُّ على سَاعِدِه ويقول: هل تريدُ أنْ ترَى ابنَك؟

فأجَابه الأَب قائِلاً بلهْفَة: وهلْ تستطِيعُ إعادَتَهُ إلىَّ؟

فهَزَّ «سَعِيدٌ» رأسَه بحماسَةٍ قائِلاً: لنْ تتكلّفَ إلا شيئاً واحِدا.

فأجَابهُ الأب قائِلاً: كلُّ مَا أملِكُ فِدَاءً لسَعِيد.

فسَكَتَ «سَعِيدٌ» للحظَات، ثمَّ وَانتَتْهُ فكرَةٌ عظيمَةٌ فأحَسَّهَا فرصَتَهُ ليساعِدَ والدَه عَلى كسْرِ حِدَّةِ طبَاعِه، والتخلُّصِ مِنْ أوْجَاعِه، فقَال لَه: لا أُرِيدُ دينَارًا ولا درْهماً ولكِنَّك إذَا ابتسمْتَ وضحِكْتَ فستَرَى «سَعِيدًا» أمَامَك فِى الحال.

بـدَأ الشـكُّ علـى وجْـهِ الأب ولكنَّـهُ كـانَ كـالغريقِ الذي يتعلقُ بأيَّةِ قشَّةٍ، فوافقَ على الفورِ وقال له الشَّاب: سأقصُّ عليْك إحْدى النوادرِ فإذَا ابتسمْتَ فسأُخبرُك بأُخْرى فإذَا ضحِكْتَ واستغرقْتَ فى الضَّحِك فستَرى ابنَك مَاثِلا أمَامك ولتفعَلْ وقتهَا مَا بدَالك.

وبدأ سعَيد يروِي لَهُ تلكَ النوادرِ والحكايَاتِ الطَّرِيفَة وَهُو يستحثُّه ويقول له: هيَّا يَا وَالدِى ابتسِمْ للحيَاة، تعلم أنَّ الابتسَامَ فنٌّ جميل يُسْعِدُ صَاحِبَهُ ويفْنِيه.

فاتسعَت ابتسَامةُ الرجُلِ مِنْ أثرِ كلمَاتِ وَلَدِه «سعَيد» ، فرآهُ كأجمل مَا يكونُ، وهمسَ لَهُ بصوْتٍ حنُون: هيَّا يَا والدِى ابتسِمْ للحيَاةِ وستَجِدُ كل مَا تتمنَّاه.

وكانت كلمَاتُه حَافزًا كبيرًا فأخذَت الابتسَامةُ تتسعُ وتتسعُ حتَّى أصبحَت ضَحكة مُدَوِّيَة، ولأنَّ صوْتَه كانَ فى الأصْلِ جهورِيًّا فقدْ ملأت ضَحِكاتُه القريةَ كلَّهَا، فسمِعَهُ كل النَاسِ وجذبتْهُم تلك الضحِكَاتِ فتحلَّقُوا حوْلَ دارِ «سعَيد» الذِى سقطت عنْهُ العمامةُ والعبَاءَة، وقفزَ السنجابُ علَى كتِفِه مِنْ جَدِيد، والأب مستغْرِقٌ فِى الضَّحِك، وعلَى صوْتِه ارتجفَ البَابُ وانفتَح، والنَاسُ تنظرُ مِنْ خلاله وتتعَجَّبُ مِنَ الرجُلِ وأحوَاله، وسَكَنَ الأب تدرِيجيًّا ليرَى أمامَه «سعيدًا» كمَا كَان..

وابتسَامتَه تملأُ وجْهَه فتضيءُ المكَان. . فاحتَضنَه والدمُوع تملأُ مآقيه، ولسَانُه يرددُ قائلا: سَامحنى يَا سعِيد. . كانَ فنَك هُوَ ضحكُك واستبشَارُك وهَا أنتَ تعمَل وتكْسَبُ وتضيءُ الدنيَا بدُعَابَاتِك البريئةِ وابتسَامتِك الحلوَة الجرِيئَة.

فهلَّلَ الناسُ لوقتٍ طَويلٍ أمامَ هذَا المشهَدِ الحلْوِ الجميل، وخرجَ عليْهم «سَعِيدٌ» الذى أحبُّوهُ ولم يعرِفُوا قصتَّه وَيدُهُ فى يَدِ أبيهِ ودمُوعُ الفرحِ تملأُ عيْنيْه.

(تمت)

رقم الإيداع	٢٠٠٢/٥٢٠٨
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-6284-6

٧/٢٠٠١/١٢٦

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)